

٦ - دعاية الجاحظ

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

... وإني لأعجب للجاحظ كيف اتسع وقته واتسع قلبه لكل هذا الضحك والأضحاك من الناس، فكأنه كان رقيقاً يرقبهم في كل ناحية من نواحي نقصهم، ليعود من وراء ذلك بالنادرة الطيبة، ويفوز بالفكاهة الضاحكة، وينتجى بالملحة البارعة، فهو يتسقط جهد طاقته - حيلة المطفل، وحجة البخيل، ونحلة الأكل، وخفة الألبه، وسخافة الغبي، وغباوة الأحمق، ووقاحة الدعي، وتفرع المتعالم، وعنجهية الأعرابي، وملحة الأديب، وظرف النديم، فإذا ما أجرى ذلك وأشابهه على لسانه، أوتناوله بقلبه، وأخرجه على طريقته، وطبعه بأسلوبه، وأفرغ عليه من روحه وقلبه، فانه لاشك يستولى على لبك، ويهيج نشاطك، ويدفعك إلى الضحك دفعا، وينتقل بك إلى روضة أريضة بالبشر والطلاقة، والشواهد لذلك كثيرة في كتب الرجل وفيما تلقفه عنه الأدباء وأهل الرواية. حدث فيما حدث به عن بخل محمد بن أبي المؤمل وشدة حرصه وإقتاره فقال: واشترى - أي ابن أبي المؤمل - مرة شبوطه^(١) وهويغداد، وأخذها فائقة عظيمة وغالى بها وارتفع في ثمنها، وكان قد بعد عهده بأكل السمك وهو بصري لا يصبر عنه، فكان قدأ كبر أمر هذه السمكة لكثرة ثمنها ولسمنها وعظمتها، ولشدة شهرته لها، فحين ظن عند نفسه أنه قد خلاها، وتفرد بأطايها، وحسر عن ذراعيه، وصمد صمدها، هجمت عليه ومعى السدري، فلما رآه رأى الموت الأحمر والطاعون الجارف، ورأى الحتم المقضي، ورأى قاصمة الظهر وأيقن بالشر، وعلم أنه قد ابتلى بالتين، فلم يلبثه السدري حتى فور السرة بالمبال، فأقبل على فقال لي يا أبا عثمان: السدري يعجبه السدر! فما فصلت الكلمة من فيه حتى قبض على القفا فانتزع الجانبين جميعاً، فأقبل على فقال: والسدري يعجبه الأقفاء، فما فرغ من كلامه إلا والسدري قد اجترف المتن كله!

(١) الشبوط نوع من السمك دقيق الذنب عريض الوسط لين المر نحدث

عنه الجاحظ في كتابه الجيران وهو كثير في دجة.

فقال يا أبا عثمان: والسدري يعجبه المتون! ولم يظن أن السدري يعرف فضيلة ذنب الشبوط وعدوبة لحمه، وظن أنه سيسلم له، وظن معرفة ذلك من الغامض، فلم يدر إلا والسدري قد اكتسح ما على الوجهين جميعاً!! ولولا أن السدري أبطره وأثقله وأكده وملأ صدره غيظا لقد كان أدرك معه طرفاً لأنه كان من الأكلة، ولكن الغيظ كان من أعوان السدري عليه، فلما أكل السدري جميع أطايبها ونقى هو في النظارة، ولم يبق في يده مما كان يؤمله في تلك السمكة إلا الغيظ الشديد والغرم الثقيل ظن أن في سائر السمكة ما يشبعه ويشفي من قرمه، فبذلك كان عزأؤه وذلك هو الذي كان يمسك بأرماقه وحشاشات نفسه؛ فلما رأى السدري يضرب القري ويلتهم التهاماً قال: يا أبا عثمان السدري يعجبه كل شيء، فتولد الغيظ في جوفه، وأقلته الرعدة فخبثت نفسه، فما زال يقيء ويسلح ثم ركبته الحمى وصحت توبته وتم عزمه في ألا يؤاكل رغبياً أبداً ولا زهيداً، ولا يشتري سمكة أبداً رخيصة ولا غالية، وإن أهدها إليه لا يقبلها، وإن وجدها مطروحة لا يمسها^(١)

فالجاحظ في هذه النادرة البارعة يحاول أن يدخل على نفسك من كل جهة، وأن يهز قلبك بالضحك في تهويله وإغراقه، فهو ييسط لك في العبارة، ويرادف الجمل على المعنى الواحد فإذا به يهزك بصور معروضة لا بألفاظ مسرودة. وخذ بالنظر إلى هذه النادرة التي بين أيدينا، فأنت في ضحك بالغ من اغراق الجاحظ في تصوير بخل ابن أبي المؤمل حتى أنه لما رأى السدري رأى الموت الأحمر والطاعون الجارف! ورأى الحتم المقضي! ورأى قاصمة الظهر! وأيقن بالشر! وعلم أنه قد ابتلى بالتين!! وأنت أيضاً في ضحك بالغ من نهاية هذا الرجل تلك النهاية الآليمة: اذ «تولد الغيظ في جوفه، وأقلته الرعدة، فخبثت نفسه فما زال يقيء ويسلح!! ثم ركبته الحمى!! وصحت توبته وتم عزمه في أن لا يؤاكل رغبياً ولا زهيداً، ولا يشتري سمكة أبداً رخيصة ولا غالية، وإن أهدها إليه لا يقبلها، وإن وجدها مطروحة لا يمسها!!» ثم أنت في ضحك من صنيع السدري وهو يقبور السرة، ويقبض على القفا، ويجترف المتن، ويكتسح ما على

(١) البخل من ٨٣

الوجهين جميعاً، ثم وهو يفرى القرى ويلتهم التهاماً!! ولقد كان السدرى من الأكلة، وهو من الأشخاص الذين أولع الجاحظ بالتأدير عليهم، وأغرق في الضحك منهم، ومع ذلك فكان يحالسه ويحاذيه ويجاذبه الرأي والفكاهة، فقال له يوماً: إذا كانت المرأة عاقلة ظريفة كاملة كانت تحبة! فقال السدرى: وكيف؟ قال: لأنها تأخذ الدراهم، وتتمتع باللباس والطيب، وتختار على عينها من تريد، والتوبة معروضة لها متى شئت! فقال السدرى: فكيف عقل العجوز؟ قال: هي أحق الناس وأقلمهم عقلاً!!

على أن السدرى وهو على ما رأيت في الشره والجشع لم يكن في الأكلة بسباق الحلبة ولا هو بكبش الكتية في رأي الجاحظ وتقديره، وإنما كان يقدم في ذلك قاسماً القمار، وكان قاسم هذا - كما يقول الجاحظ - شديد الأكل شديد الخبط قذر المؤاكلة، وكان أسخى الناس على طعام غيره وأبخل الناس على طعام نفسه؛ وكان في مؤاكلته يعمل عمل رجل لم يسمع بالحشمة ولا بالتجمل قط. وكان يجلس على طعام ثمامة بن أشرس فكان لا يرضى بسوء أدبه حتى يجر معه ابنه إبراهيم، وكان بينه وبين ابنه في القدر بقدر ما بينه وبين جميع العالمين، فكانا إذا تقابلا على خوان ثمامة لم يكن لأحد على إيمانها وشماثلها حظ في الطيبات (١)، وكان قاسم إلى جانب ذلك سخيلاً مغفلاً غيباً، وقد حفل الجاحظ بأخباره ونوادره فأورد بعضاً من حوادثه في الهجوم على خوان ثمامة وفتكه به في كتاب البخل (٢)، كما أورد طرفاً من سخافات وحقائقه في البيان والتبيين (٣)، وما أظنيه وهو يضحك من جهله إذ يقول في باب اللحن: وقال بشر المريسي: قضى الله لكم الحوائج على أحسن الوجوه وأهتوها! فقال قاسم القمار: هذا على حد قوله:

إن سليمي والله يكلوها ضنت بشيء ما كان يرزوها
قال الجاحظ: فصار احتجاج قاسم أطيب وأضحك من لحن بشر (٤)، ولولا التخرج لأوردنا شيئاً من نوادر الرجل ومضاحيكه التي أحصاها الجاحظ عنه، فإن فيها ما يعف القلم عن ذكره، ولا يصح أن ينشر مطبوعه في مجلة سائرة! على أنها طيبة

تفيض بالضحك وتحمل عليه!! والجاحظ ولوع ببعض الأشخاص يتعقب أخبارهم في الضحك والعبث، ويذكرهم بأوصافهم في كل مناسبة داعية، فكما أنه يتندر على الكندي وابن أبي المؤمل وسهل في البخل، والسدرى وقاسم القمار في الأكلة، فهو يذكر كثيراً كيسان مستملي أبي عبيدة في أهل البلادة، ولقمان الممرور في أصحاب الغباوة، ورسموس اليوناني في الموسوسين، وأبو حية النيمري في المجانين، وريطة بنت كعب في الخرق، ومالك بن زيد مناة في النوكي، وابن فنان في المدخولين. وإنه ليطربك ويضحكك وهو يضحك من مستملي أبي عبيدة في غفلته وبلادته، قال الجاحظ: فكان يكتب غير ما يسمع، ويقول غير ما يكتب، ويستملي غير ما يقرأ، ويملي غير ما يستملي. أمليت عليه يوماً:

قلت لمعشر عدلوا بمعتمر أباً عمرو! -
فكتب أباً بشر، وقرأ أباً حفص، واستملي أباً زيد، وأملي أباً نصر (٥) قلت وإذا كان في هذا الوصف ما يحمل على الضحك، فليس يبالغ من ذلك ما يبلغه وصف الجاحظ أيضاً لغباوة أبي لقمان الممرور إذ يقول: وسأل بعض أصحابنا أباً لقمان الممرور عن الجزء الذي لا يتجزأ ما هو؟ فقال: الجزء الذي لا يتجزأ على ابن أبي طالب عليه السلام، فقال له أبو العيلاء: أفليس في الأرض جزء لا يتجزأ غيره؟ قال: بلى! حمزة جزء لا يتجزأ! قال فما تقول في أبي بكر وعمر؟ قال أبو بكر يتجزأ! قال: فما تقول في عثمان؟ قال: يتجزأ مرتين، والزبير يتجزأ مرتين، قال: فأى شيء تقول في معاوية؟ قال: لا يتجزأ!! قال الجاحظ: فقد فكرنا في تأويل أبي لقمان حين جعل الأنام أجزاء لا تتجزأ إلى أي شيء ذهب؟ فلم نفع عليه إلا أن يكون أبو لقمان كان إذا سمع المتكلمين يذكرون الجزء الذي لا يتجزأ هاله ذلك وكبر في صدره وتوهم أنه الباب الأكبر من علم الفلسفة!! وأن الشيء إذا عظم خطره سموه بالجزء الذي لا يتجزأ!! (٦) وإذا كان الشيء بالشيء يذكر كما يقولون، فما أشبه أباً لقمان في غفلته وجهله بعيد الكلاخ. وقد سأله الجاحظ: أيسرك أن تكون هجيناً ولك ألف دينار؟ فقال: لا أحب اللؤم بشيء! -

(١) جمع الجواهر للمصري ص ٢٠٢

(٢) الحيوان للجاحظ

(٣) البخل ص ١١٧ (٤) ص ١٦٦ و ١٦٧

(٥) ص ٢١٨ و ٢١٩ (٦) البيان والتبيين ص ٢٠٧

حديث الأئزهار

للكاتب الفرنسي ألفونس بار

ترجمة ف. ف.

زهرة مقصوفة

ترطبت أهداني بدموع الفجر ، ففتحت عيني لأوائل—
أشعة الشمس .

مرت بي عند الصباح غادة استوقفها جمالي فخدجتي بنظرات
الاعجاب فابتسمت لها

وأمرت الغادة يدها الناعمة على وريقاتي فارتعشت ،
وأسكرتني اللذة ، لكنها لم تظل حتى شعرت بعدها بألم هائل
اخترق أحشائي ، فأخيت الرأس ذليلة على غصني المقصوف

لم لم تقطني تويحي ، أيتها الغادة ، لماذا قصفت غصني
فتركتني بين الحياة والموت ، وقد كان في إمكانك أن توسدينني
نهدك فأرقد عليه بسلام .

إن دمي يسيل ببطء من جرحي المفتوح ، وصقيع الموت
يلوح وريقاتي بالاصفرار . وقد انطبق تويحي منقبضاً على أوجاعه
أتوقف النسيم عن مداعبة الأغصان ؟ إني لم أعد أسمع
لأجنحته عليها خفيفاً . وهل صمتت الأطيوار ؟ فقد انقطع عن
مسمعي تغريدها .

أين شعاع الشمس ؟ إني لم أعد أراه . وبلاء أخبرني ،
أيتها الرفيقات ، هل تلاشى النور وساد الظلام ؟

لا، إن الليل لم ينشر أجنحته بعد ، ولكنها أشباح الموت السوداء
تنطبق على ، فسوف لا أرى لمعان النجوم في قبة الفضاء ولا أفتح
وريقاتي لاقبال ندى الفجر

ستساقط بقاياي مبددة على التراب وترتفع روحي إلى
الأعلى تاركة أريج عالقاً بالآثير .

سوف ينتصب شبحي المتألم بوجهك ، أيتها الغادة ، وسوف يثأر لي
ضميرك منك ، فتألمين لقسوتك على وإهمالك للضحية البريئة .

غفر الله لك ، ووقاك من يد تغشاك بالآمل لتتركك فريسة
الإهمال . أبعد الله عنك آلام الزهرة المقصوفة ! أيتها الفتاة !

قال الجاحظ : فقلت له : إن أمير المؤمنين ابن أمة^(١) ! فقال :
أخزى الله من أطاعه ، فقلت : نبي الله إسماعيل ابن أمة ! فقال :
لا يقول هذا إلا قدرى ! فقلت : وما القدرى ؟ فقال : لا أدرى
إلا أنه رجل سوء !!

وللجاحظ كثير من المضاحك السائرة والنوادر الذائعة التي
نقلها عنه الرواة ، فمن ذلك ما رواه أبو بكر بن إسحاق قال : قال
لي إبراهيم بن محمود ونحن ببغداد : ألا تدخل على الجاحظ ؟ فقلت
مالى وله ! فقال : إنك إذا انصرفت إلى خراسان سألوك عنه فلو
دخلت إليه وسمعت كلامه ؟ فدخلت عليه فقدم لنا طبقاً من الرطب
فتناولت منه ثلاث رطباً وأمسكت ، ومرّ فيه إبراهيم فاشرت
إليه أن يمسك ! فرمقني الجاحظ . فقال لي : دعه يا قتي فقد كان
عندي بعض إخواني قد قدمت إليه الرطب فامتنع فخلقت عليه فأبى
ألا أن يبرّ قسماً بثلاث رطبة !!

وقال أبو العيّن : كان الجاحظ يأكل مع محمد بن عبد الملك
الزيات فجاؤا بفالورجة^(٢) فتولع محمد بالجاحظ وأمر أن يجعل
من جهته مارق من الجام ، فأسرع في الأكل فتظف ما بين يديه !!
فقال ابن الزيات : تقشعت سماؤك قبل سماء الناس يا أبا عثمان ؟
فقال الجاحظ : لأن غيمها كان رقيقاً !!

وأدعى إلى الضحك من هذا ما حدث به الجاحظ فقال :
كان يحضر إلى رجل نصيح من العجم فقلت له : هذه الفصاحة
وهذا البيان لو ادعيت في قبيلة من العرب لكنت لا تنازع فيها ،
فا جابني إلى ذلك ! فجعلت أحفظه نسباً حتى حفظه وهذه هذأ ،
فقلت له : الآن لا ته علينا ! فقال : سبحان الله ان فعلت ذلك فأنا
إذا دعي !!

وشبه بهذا الأعجمي المتفاح ذلك القاص المتعالم الذي
أشار إليه الجاحظ فقال : وكان عندنا قاص أعجمي ليس يحفظ من
الدنيا الا حديث جر جيس ، فلما أخذه بكى واحداً من النظارة فقال
القاص : أنتم بأمي شيء تكون !! إنما البلاء علينا معاشر العلماء !!
فالجاحظ لاشك كان رجلاً ضحكاً ضحكاً ، ومضاحكاً كما
قلنا . تمتلك اللب ، وتحتاج النشاط ، وتدفع إلى الضحك دفعا ...

« له بقية »

محمد فهمي عبر اللطيف

(١) يريد به الخليفة المنصور إذ كانت أمه جارية

(٢) حلوا ، نعمل من دقيق الماء والصل وكانها العروقة الآن بالبوده